المجلة الجزائرية للاتصال المجلد15 العدد02(2016)، ص78 ــ 76
ISSN:1111-536X EISSN:2676-1793

تقاطع التخصّصات لدراسة الظواهر الإعلامية والاتصالية

عزيز لعبان**

مقدمة

تتناول هذه الدراسة بعض الأفكار حول تخصص علوم الإعلام والاتصال وكل النقاش الذي صاحب تطوّرها وسط التخصّصات الاجتماعية الأخرى، انطلاقا من ابستمولوجيا هذه العلوم، مرورا بالجدال حول استقلاليته كعلم قائم بذاته، ووصولا إلى التساؤل اللامتناهي حول مجالاته، والإنتهاء بالريبة التي تحوم حول مناهجه وأدواته.

لا أسعى من خلال التطرق إلى تناول تقاطع التخصصات مراجعة تراث "بالو آلتو" على الرغم من أهمية تجربة ما عرف بـ "محاضرات ماسي" (Conférences Macy) التي يعتبرها كثير من الباحثين التجربة المرجعية للبحث بين التخصصات، وإنما وضع التخصص في مسار التطور الأكاديمي كعلم نشأ بصفة مستقلة عن العلوم الاجتماعية الأخرى، ولكن أيضا إلى جانب هذه الأخيرة، مع وضع الوسيلة في قلب هذا التطور واعتبارها المحور الذي دارت حوله النقاشات التي سمحت بتطوير علوم الإعلام والاتصال، واتساع مجالاته.

أوّلا:توطئة ابستمولوجية.

**أستاذ محاضر بكلية علوم الإعلام والاتصال. جامعة الجزائر 3.

ما يزال النقاش قائما إلى يومنا هذا عند المؤرخين لعلوم الإعلام والاتصال حول ظهور هذه الأخيرة، وطبيعة علاقتها مع التخصصات الأخرى القريبة منها، وتظهر الحاجة دائما عند المتخصّصين في علوم الإعلام والاتصال إلى تبرير ضرورة وجودها، والبحث الدائم والمستمر عن خلفية ومرجعية تاريخية لها، لإعطائها نوع من النبلوالشرف كمثيلاتها في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وأكثر من هذا، الشرعية المفقودة.

على الرغم من أنه مضى ما يقارب القرن على بروز علوم الإعلام والاتصال، كتخصص علمي في الجامعات العالمية، إلاّ أنّ النقاش يتجدّد في كل مرّة ويعود الى الواجهة. ومردّ ذلك الى أنّ هذه العلوم لم تظهر نتيجة نقاشات ثقافية فلسفية للنخبة الفكرية في المجتمع، وإنما فرضتها تطورات تقنية تكنولوجية، برزت الحاجة إلى إيجاد أطر داخل الجامعات من أجل تفسيرها. ولهذا كلّما ظهرت إلى الوجود تكنولوجية جديدة ذكّرتنا بالنقاش حول العلوم التي تفسرها؛ وهذا يضطرّنا الى تذكير ابستمولوجي.

يشير Lucien Sfez إلى أنّ الابستمولوجيا "تقدّم لنا صورة منسجمة للممارساتالتي تحتويها. بطريقة أخرى، الابستمولوجيا خطاب ربط، لا يكون على شكل ملاحظة بسيطة للموجود، ولكنه بحث عن الثوابت في مختلف الممارسات" (Sfez, 1994, p. 57) وهذا يؤدي بنا إلى التساؤل عن الرابط الموجود بين مختلف الممارسات الاتصالية الشخصية منها والجماهيرية، وكذا الخطابات المصاحبة لها.

يقترح sfezلكي نفهم الروابط الموجودة بين كل هذه الخطابات المنتجة حول الاتصال، والممارسات التي تغطيها، أن نمارس عليها نقدا يكون تمييزيا (Discriminant) وبنائيا (constructif). يظهر في الخطوة الأولى أنّ رصد تردّدات مفهوم الاتصال واستخداماته المختلفة والخطابات المنتجة في مختلف

المجالات، يأخذ مظاهر الخطاب الايديولوجي، لأنه يمسّ كل المجالات بدون تمييز ويغطي وقائع مختلفة،إلى درجة حجبها بدل توضيحها وتفسيرها.

في حين أنه في الخطوة البنائية ينبغي تمييز المبادئ العملية التي تقوم عليها الميادين التي تعني بالاتصال، واستخراج النواة الصلبة لكل ميدان، ثم التعميمات التي تشمل هذه المبادئ. ومنه استخراج مفاهيم مفتاحية مثل الاتصال، الجمهور، الرأي العام، الإعلام، الصحافة... الخ.

يقول Daniel Bougnoux في مقدمة كتابه Introduction aux sciences de la communication أنّ التخصّصات التي تعني بالاتصال، لا تشكّل مجموعة مغلقة من الإشكاليات، والنظريات، أو المعطيات الامبريقية. وأنّ الذي يغامر فيها تواجهه اختلافات بحسب الجامعات، والبرامج، والمسارات. وأنّ الأساتذة والباحثين لا يملكون سوى قطعا مجزّئة من جغرافيا الدراسات. ويرجع ذلك الى التقاطع الذي نجده بين عدّة تخصّصاتوالذي تميّز هذه العلوم.

يرجع كثيرون تاريخ أي علم أو تخصّص علمي إلى بعده الفكري (intellectuel)، أي تاريخ الإنجازات العلمية، أو إلى حياة الباحثين والمفكرين،من أجل البحث عن نوع من النبل والأصالة، لأن تطوّر العلوم الاجتماعية والإنسانية كان نتيجة نقاشات وتبادلات فلسفية وفكرية، بينما إذا عدنا إلى علوم الإعلام والاتصال نجد بأنّ أكثر الذين يؤرّخون لها، يؤكدون على "الأبعاد المعرفية والاجتماعية لبنائها كتخصّص أكاديمي مستقل" (Olivesi, 2006, p. 257)، وهو ما يطلقون عليه "المأسسة المعرفية والاجتماعية"*

*Institutionnalisation cognitive et sociale

تحيلنا المأسسة المعرفية إلى صياغة تساؤلات البحث، والإشكاليات، وبناء الموضوعات، وإلى التراكم النظري والمنهجي. بينما تشير المأسسة الاجتماعية إلى طرق تنظيم البحث، والتدريس، وكذا البنيات الاجتماعية لإعادة تكوين الباحثين، بالإضافة إلى نظم النشر(Olivesi, 2006, p. 251)

ولهذا إذا عدنا إلى تطور علوم الإعلام والاتصال، نجد أنها كانت محصّلة التقاء عدة تخصّصات معرفية (علم الاجتماع، علم النفس، علم النفس الاجتماعي، الأدب، العلوم السياسية...) لدراسة ظواهر اجتماعية (الدعاية، الإشهار، العنف، الرأي العام، الصحافة المكتوبة، السينما، التلفزيون...) لفتت الانتباه، وشكّلت وسائل الإعلاموالاتصال النقطة المشتركة بينها. وبعدّالتعدّد في التناولوكذا التقاطع داخل التناول ذاته، بالإضافة إلى كثرة الدراسات المرتبط بتغلغل الوسائل الاتصالية في قطاعات المجتمع المختلفة، وفّرا الموضوع العلمي الذي برّر الحاجة إلى تخصّص مستقل عن التخصّصات الاجتماعية التي انحدر منها الدارسون الأوائل لوسائل الاتصال الجماهيرية.

ولكن من جهة أخرى، خلقت هذه الوضعية مشكلة ما زالت قائمة إلى يومنا هذا وهي: كيف يمكن الحديث عن علوم لا تملك مناهج، أو أنّ مناهجها مأخوذة من علوم أخرى؟ وهل يمكن القبول بعلوم تتطفّل على التخصّصات الأخرى من أجل استلاف أدوات ونظريات لمعالجة موضوعاتها التي هي أيضا مدروسة في إطار التخصّصات العلمية الأخرى؟ أو القبول بصفة نهائية بخصوصية هذه الوضعية واعتبار تقاطع التخصصاتالتناولالمميّز لعلوم الإعلام والاتصال.على حد قول Michel Mathien

"أن ميدان علوم الإعلام والاتصال تأسس على التوالي، إلى جانب كل التخصّصات الأخرى ليتمكّن من التواجد كتخصّص

قائم بذاته، وكواجهة بين التخصّصات. أصبح المكان الذي تتقاطع فيه وجهات النظر العلمية حول الأنساق الإنسانية الاتصالية والإعلامية،وحول امتداداتها التقنية، وظروفها السياسية،والاقتصادية،والصناعية والثقافية."[1] (Mathien, 1995, p. 77)

إنتقاطع التخصصاتوتعدّدها كتناول يفرض نفسه كحتمية بالنظر إلى تطوّروتعقّد الإشكاليات المرتبطة بالاتصال في عصرنا، والواقع الذي يفرضه الاتصال في مجتمعات اليوم مع انفجار التكنولوجيات الخاصة بالاتصال، وهو ما يؤكده Michel Mathien

"إنّ هذا التخصّص يشكّل حقلا لنشاطات علمية في طريق البروز. سمح بظهورهالانتشار المشترك لمقاربات متعدّد التخصصات"[2](Mathien, 1995)

لكن بالعودة إلى ما ذكره Sfezسابقا، فإنّ الابستمولوجيا تسمح لنا بالانتباه إلى الثابت في هذه التطوّرات والعلاقات. إذ أنّ تطوّر هذه العلوم، على الرغم من التنوّع النظري الذي وفّرته (نظريات ذات مقاربات اجتماعية، نفسية، اثنوغرافية، انثروبولوجية...)، إلاّ أنّ الثابت بينها هو الوسيلة،

[1] *Le domaine des « sciences de l'information et de la communication » s'est donc constitué à la fois comme discipline, à côté de toutes les autres pour pouvoir exister en tant que telle, et comme interface entre disciplines. Il est devenu le lieu des regards scientifiques croisés sur les systèmes humains d'information et de communication, sur leurs prolongements techniques, sur leurs conditionnements politiques, économiques, industriels et culturels.*

[2] *Cette discipline constitue aussi un chantier d'activités scientifiques en voie d'émergence que des approches pluridisciplinaires conjointement déployées permettent d'éclairer.*

فالبحوث المختلفة التي شكّلت الإطار النظري والمنهجي لعلوم الإعلام والاتصال، كانت شديدة الارتباط بتطوّر الوسيلة، فانتقلنا من بحوث الراديو إلى السينما، فالتلفزيون، ثم الرقمي، ووصولا إلى التكنولوجيات الحديثة للاتصال.

الأمر ذاته بالنسبة لعلاقة علوم الإعلام والاتصال بالعلوم الأخرى، إذ أنّ نفوذ الوسيلة وولوجها في كل أجزاء المجتمع وقطاعاته، وارتباطها بكل المجالات الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، النفسية، السياسية هو الذي جعل أنّه لا يمكن الإقتراب إلى فهمها إلاّ من خلال مقاربات، أدوات، ومفاهيم متقطعة، ومتعدّدة، ومتنوّعة.

> " أصبح المكان الذي تتقاطع فيه وجهات النّظر العلمية حول الأنساق الإنسانية الاتصالية والإعلامية، وحول امتداداتها التقنية، وظروفها السياسية، والإقتصادية، والصناعية، والثقافية".(Mathien, 1995)

ثانيا: الوسيلة في صلب تخصّص الإعلام والاتصال.

القول بأنّ الوسيلة هي العامل المشترك في تطوّر بحوث الإعلام والاتصال، يعدّ استفزازا لكلّ الذين يريدون البحث عن أصول انثروبولوجية لعلوم الإعلام والاتصال، من خلال العودة الى تاريخ الاتصال البشري، والعمل على إثبات تجذّر الظاهرة الاتصالية في الزمن، وأسبقيتها على وجود الوسيلة "الجماهيرية"، وهم الذين يركّزون على الفعل الاتصالي باعتباره العنصر المحدّد للعلاقة أيا كانت الوسيلة المستخدمة، إلاّ أنّ دراسة متمعّنة لتاريخ الإعلام والاتصال يثبت عكس ذلك.

وفي هذا الصدد يشير Mi ège إلى"أنّ طبيعية المعارضة بين الإعلام والاتصال، والسيادة المفترضة للاتصال، لا تتوافق مع التطوّرات الماضية (التي سطّرت في الأعمال التاريخية والانثروبولوجية)، ولكن يمكن اعتبارها – في صيغتها العمومية، كما في تصورات ما بعد الماكلوهانية – كاختزال شكلي وسطحي، يمنع من التفكير في تعقيدات الروابط التي تتشكل بين الإعلام والاتصال والمجتمعات المعاصرة."[1](Mi ège, 2000, p. 559).

مثلما أشرنا إليه سابقا فإن تقاطع التخصصاتكتناول طرح عدّة إشكاليات على التخصّص، بعضها تنظيمية (مثلا التحديد النظري والمعرفي)، وأخرى إجرائية تتعلّق بالبحث في مجال الإعلام والاتصال (خاصة ما يمسّ المناهج والأدوات)، ومنها موضوعاتية من خلال التساؤل عن الموضوعات التي تنتمي إلى المجال، وتلك التي تمسّ مجالات أخرى. وطرحت في هذا الشأن عدّة تساؤلات من قبيل:

- كيف يمكن تغطية هذه المجالات الواسعة، ثم الربط بينها؟
- كيف يمكن الاتفاق على قاعدة تكون الحد الأدنى للمراجع النظرية، والمفاهيمية أو البراديغمية؟[2]

يعتبر Daniel Bougnouxأنّه بالنظر إلى تاريخ الوسيلة وأعني هنا وسيلة الاتصال الجماهيرية منذ مطلع القرن العشرين، وتاريخ التكنولوجيات

[1] *L'opposition de nature entre information et communication, et la suprématie supposée de la communication, non seulement ne correspondent pas aux évolutions passées (retracées dans des travaux d'historiens ou d'anthropologues), mais peuvent être considérées - dans leurs versions publiques comme dans les présentations post- mc luhaniennes qui en sont faites - comme une réduction schématique et superficielle, empêchant de penser la complexité des liens qui se nouent actuellement entre information communication et les sociétés contemporaines.*

[2] Daniel Bougnoux, p.03

الحديثة للاتصال في العقدين الأخيرين من القرن الواحد والعشرين، نجد أنّ هناك نواة صلبة للدراسات والبحوث الخاصة بالإعلام والاتصال. ويبرز هذا في دراسات الوسيلة الاتصالية (الهاتف، المطبوع، شبكة الانترنت، التلفزيون، الاذاعة، السينما...) في كل مظاهرها:

- مظاهرها السيميولوجية:ما نوع الإشارة التي تستخدمها الوسيلة، هل تكتفي بنقل النص، أو تثريه بالصور، والدلالات، وما هي النتيجة المرجوّة من ذلك؟
- مظاهرها البراغماتية:كيف يستحوذ المستخدمون على الرسائل من أجل تعديل معانيها، وما هي درجة التفاعل التي يمكن ملاحظتها من فترة بثها إلى غاية تلقيها؟
- مظاهرها الخيالية:كيف أنّ الخيال الفردي أو الاجتماعي لا يكتفي باستخدام الوسيلة، وإنّما يضفي عليها جمالية، ويحفّها بالتقمّصات والإسقاطات.
- مظاهرها النسقية:كيف نملك وسائل في حقيقة الأمر هي التي تملكنا، أي كيف تنحت هذه الوسائل فضاءات تقنعنا فيما بعد أنها امتدادات لناويؤكد أنّ تاريخ وسائل الإعلام أعطى للتناول مواضيع، وأرضية إمبريقية صلبة أي أعطاها تجذّرا موضوعاتيا(Bougnoux, 1999).

وإذا كان العلم هو " علاقة بين الفاعل والموضوع الذي يتواجد لذاته، وإذا كان العلم يعمل على تفسيره أو فهمه من خلال مفرداته، مفاهيمه، وقوانينه." (Fondin, 2001)كما أنّه " علاقة بين فاعل افتراض لا يمكن فهمه إلاّ في علاقته مع أنموذج علمي أو بالنظر إليه، على اعتبار أنّ البراديغم العلمي هو مجموع العناصرالمنسجمة التي يرجع إليها الباحث من أجل تفسير

أو فهم شيئا ما."(Fondin, 2001, p. 120)*فإنّ الموضوع الرئيسي لتخصّص الإعلام والاتصال يكمن في الوسيلة كما حاججنا عليه سابقا، لا نستطيع فهمه وتفسيره إلاّ من خلال براديغم أو مجموعة من البراديغمات على حد تعبير Mucchielli.

" إنّ المعارف محدّدة بالباراديغمات المرجعية المختارة" (Micchielli, 2000, p. 80)لأنّ البراديغم يحمل في طياته نظرة للعالم الذي يحيط بنا، ويعطي نوع من الفاعلية في تفسير الأشياء، وعليه كل شيء يتمّ التفكير فيه، يتمّ في إطار نظرية أو مرجعية أو براديغم إلى حدّ ما واضح. بمعنى أنّنا نعرّف الموضوعات العلمية في علاقتها مع البراديغم الذي نريد دراستها في إطاره، وبالنظر إليه. وتكون هذه الدراسة شديدة الإرتباط بالمنطلق الابستمولوجي (نظرية ومفاهيم) وبالمنهج الذي نختاره. ومن هنا تصبح مسألة تحديد البراديغم حيوية لكل تفسير ذا مصداقية.إذن ما هو البراديغم الذي ندرس في إطاره الاتصال؟ ما هو البراديغم الذي يسمح لنا بفهم الظواهر المرتبطة بموضوع الوسيلة الاتصالية؟ هل تخصص الإعلام والاتصال يملك أصلا براديغما خاصا به؟

إذا انطلقنا من معطى أنّ الإعلام والاتصال تخصّصتتقاطع فيه عدد من التخصّصات، فهذا يعني أنّ الباحث يستطيع أن يتموقع في براديغمات مختلفة كما يشير إلى ذلك "كوهن":

> "إنّ باحثين يعملون في نفس المجال أو في مجالات مترابطة، بإمكانهم الحصول على براديغمات مختلفة في مسارهم. هذا

* « Une relation entre un sujet et une proposition qui ne se comprend que par rapport à un certain paradigme scientifique et en fonction de celui-ci – un paradigme scientifique étant l'ensemble cohérent d'éléments auquel un chercheur se réfère pour expliquer ou comprendre quelque chose. »

يعني أنّ الباحثين بإمكانهم التموقع في براديغمات مختلفة لاستكشاف، وتتبع ظواهر الاتصال." [1](Vallée, 1991, p. 68)

وبالنظر إلى تطور علوم الإعلام والاتصال فإن مجموعة من البراديغمات تفرض نفسها:

- البراديغم السيبرنتيقي: يعتبر المنظمة كشبكة اتصال تنتقل عبر عدة تقاطعات. بحيث نستطيع متابعة السير المتدرج للمعلومة من اجل تقييم أثر الشبكة في الأداء، ودرجة الرضى في المجموعة.
- البراديغم السلوكي: يعتبر وسائل الاتصال الجماهيرية كمنبهات قوية، في مواجهة افراد غير محصّنين(vulnérables) واعتمادا على بحوث الدعاية والاشهار، تم التوصل الى ان الرسائل الاعلامية تستطيع تغيير سلوكيات الافراد في الاتجاه المرغوب.
- البراديغم الوظيفي: يقترح بدل الاهتمام بالرسائل، دراسة استخدامات الجمهور للوسيلة والاشباعات المحققة من ذلك.
- البراديغم التفسيري: يقترح ان دراسة المعاني ينبغي ان تتركز على الطريقة التي يفسر بها الفرد العالم الذي يحيطه من خلال سلوكياته الاتصالية.

ثالثا: الحاجة إلى الإستقلالية في مواجهة منهجية تقاطعالتخصّصات.

[1]Des chercheurs qui travaillent dans un même domaine ou dans des domaines très connexes, peuvent acquérir des paradigmes assez différents au cours de leur carrière. Cela signifie que les chercheurs peuvent se situer dans différents paradigmes pour explorer et appréhender les phénomènes de la communication.

إنّ بناء أي تخصّص، وحصوله على الشرعية العلمية يتم عبر مراحل زمنية تكون طويلة. تتجاذبها فترات تتّسم بالصراع وأخرى بالإجماع. مراحل يكون فيها النقاش حادّا ومعمّقا، وأخرى يسيطر عليها سوء التفاهم والصراعات. وفي تحليله لتطور تخصص الإعلام والاتصال في فرنسا مثلا يشير Mi ège""

> " أوّلا: بعض الخصائص الأوّلية ناجمة عن اللبس الذي لم يتم رفعه؛ ثانيا: الإرتفاع المنتظم للقوام البشري (خاصة منذ بداية سنوات التسعينيات) لم يتبعه وعي مشترك بالرهانات العلمية، والمؤسّساتية، مع ضرورة المشاركة الفعلية لكل فرد. وثالثا: بروز النظام الإعلامي شحذ المصالح التي لم تكن دائما ذات طابع تفكيري أو تصوّري"(Mi ège, 2000, p. 559).

إنّ النقاش الحقيقي حول هوية التخصّص يبدأ عندما نصل إلى الخيارات المنهجية، لأنها هي التي تحدّد درجة العلمية، وهي التي تفصل بين الباحث العلمي، وكاتب المحاولات (essayiste)، بين البحث الذي يندرج في تراكم، والتفكير الذي قد يكون ملائما إلّا أنّه يفتقد إلى الدقّة والثبات العلميين. وعليه فإن مصدر القلق الحقيقي في طريق مأسسة التخصّص، يتم عندما يفرض هذا النقاش نفسه على كل الذين يزعمون الإنتماء إلى التخصص. (لأنه يستوجب الإبتعاد عن العموميات) ولهذا السبب فإنّ مسألة المنهج تغيّب أو تدرج في آخر الإهتمامات، أو في كثير من الحالات كأنها مسألة لا تطرح.

ولهذا نجد أنّ كلّ الذين يسعون، أو يميلون إلى نظرية عامة للإعلام والاتصال توفّر لهم إمكانية التفكير في بناء إجتماعي ما، يبحثون عن منهجيات تسهّل لهم هذا المنحى، وعندما يجدون أنفسهم في مأزق أداتي عملي،

يعودون مباشرة إلى مساعي وطرائق تكون قريبة من المحاولاتية(l'essayisme)، لأن خصوصية الإشكاليات الاتصالية والإعلامية اليوم، والتي تسمح بتفسير التطورات المعقّدة للاتصال، تفرض على كل باحث في هذا الميدان اللجوء إلى أدوات/مناهج متعدّدة، مستخدمة عامة في تخصّصات أخرى*. وهو ما يجعل تعدّدية المناهج التي نستمدّها من تخصّصات أخرى أمرا تفرضه الحاجة إلى فهم الظاهرة الاتصالية. (Mi ège, 2000)

إن الحديث عن تعدّد المناهج وتقاطعها، مرتبط بتعدد النظريات وتقاطعها، الذي يؤدي بدوره إلى تعدّد التخصصات وتقاطعها، فماذا يستوجب هذا التوجه بالنسبة للباحث في تخصص الإعلام والاتصال.

يسمح هذا التناول حسب "Mi ège" بربط عدّة مناهج من تخصّصات مختلفة حول محاور بحث محدّدة، وخلق تفاعل فيما بينها، ويعطي كمثال على هذه الوضعية الربط بين مناهج تحليل الخطاب مع تلك التي تسمح برصد ممارسات الفاعلين الاجتماعية.

> " إنّ الحالة النموذجية ولكن أيضا الأكثرتداولا، هي حالة التوفيق بين تحليل الخطابات الاجتماعية، واستراتيجيات أو ممارسات الفاعلين الاجتماعيين...أصبح أمرا واقعا، كون الربط بين اشكاليات العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع، العلوم السياسية، وحتى العلوم الاقتصادية) وعلوم اللسانيات والخطابات (سواء كانت مكتوبة او غير مكتوبة) يظهر على أنّه

* Par exemple les méthodes d'enquête de la sociologie ou de l'ethnologie d'une part, les études de corpus de textes des sciences du langage d'autre part

مقاربة منتجة، في ربطها لتطور الممارسات الاجتماعية بإنتاج المعنى." [1](Mi ège, 2000)ويضيف عن أهمية هذا التناول :

" هذا السعي إلى إيجاد التفاعل بين مقاربات، عمل تاريخ العلوم على الفصل بينها بعناية، لا يسمح فقط بتجنب عقبة التحليلات السياقية، وإنما وبصفة خاصة تتبّع تحوّلات الاتصال الإعلامي بصفة دقيقة" [2](Mi ège, 2000).

وهذا ما يفسّر توجّه الباحثين في الإعلام والاتصال نحو تقاطع التخصّصات وتعدّدها كتناول يكاد لا يكون اختيارا بالنسبة إليهم، ليس فقط بالنظر إلى العناصر المؤسّسة لهذا العلم والذي أشرنا إليه آنفا، ولكن بدرجة أكبر للإمكانيات التي توفرها فيما يتعلق بالبحث ونذكر منها:

- إمكانية الربط بين الأجهزة التقنية والتكنولوجية أو الوسائط مع إنتاج الخطابات أو الرسائل والمحتويات.
- إمكانية الأخذ بعين الإعتبار مجمل السيرورة الاتصالية انطلاقا من الرسالة التي تمر عبر الوسيلة ووصولا إلى التلقي والإستقبال.
- العلاقة المتقلّبة بين بنيات التواصل الثقافي والاجتماعي من جهة، وعناصر الاتصال الجماهيري من جهة اخرى.

[1] Le cas le plus exemplaire mais aussi le plus fréquent est la mise en correspondance de l'analyse de discours sociaux avec celle de stratégies ou de pratiques d'acteurs sociaux...C'est un fait que l'articulation entre les problématiques des sciences sociales (sociologie, sciences politiques et même sciences économiques) et celles des sciences des langages et des discours (inscrits ou non dans des textes) se révèle comme une approche productive, en ce qu'elle relie l'évolution des pratiques sociales et la production du sens.

[2]Cette recherche d'interaction entre des approches que l'histoire des sciences a soigneusement dissociée, permet non seulement d'éviter l'écueil des analyses contextuelles, mais surtout de suivre de façon fine les changements de la communication médiatique.

- الإنتباه إلى السيرورات المعقّدة والمتناقضة التي تسمح للتكنولوجيات الحديث للاتصال بالنفوذ بتدرج في مختلف المجالات الاجتماعية والمهنية، والتي تؤدي إلى تحوّلات في الممارسات، وتجديد في معايير الفعل الاتصالي.

ويمكن بهذه الطريقة أن نعدّد اتجاهات بحثية كثيرة وكلّها تؤكّد على أنّه لا يمكن معالجتها انطلاقا من مقاربة واحدة أو منهج واحد صالح لكل الإشكاليات والموضوعات. وأن التوجّه نحو مناهج متقاطعة، ومتنوعة ومتعدّدة هو الكفيل بتقديم إجابات نظرية ومنهجية وحتى اجتماعية، لكل التحدّيات التي تطرحها الظاهرة الاتصالية والإعلامية في القرن الواحد والعشرين.

رابعا: بعض الملاحظات حول تطور تخصّص الاعلام والاتصال في الجزائر.

إنّ الثورة التقنية والتكنولوجية التي يعرفها العالم اليوم، وتطوّر العلوم – أي علوم الإعلام والاتصال – التي تفسّرها، وتموقع الظواهر التي تعالجها هذه الإخيرة في صلب الإهتمامات والإنشغالات، لا يعني أبدا أنّ التخصّص يعرف نفس التطوّر في كل المجتمعات التي تدرسه في جامعاتها.

يمكن من خلال بعض المؤشرات أن نرصد مدى ملائمية البحث الإعلامي في الجامعة الجزائرية مع تطوّر الظاهرة الإعلامية والاتصالية في المجتمع:

- سيرورة المأسسة الاجتماعية لعلوم الإعلام والاتصال سبق وفاق سرعة المأسسة المعرفية التي ما زالت غائبة، إذ أنّ تخصّص الإعلام والاتصال يعاني من فقدان تراكم معرفي يفسّر الظاهرة الاتصالية في المجتمع، رغم

أنّ القرار الإداري لإنشاء تخصّص أكاديمي جامعي كان سنة 1964. وعلى سبيل المقارنة هي السنة التي عرفت إنشاء المركز من أجل الدراسات الثقافية المعاصرة في بريطانيا،والذي ترعرع خارج الإطار الأكاديمي. إلاّأنّ المأسسة المعرفية فرضت فيما بعد المأسسة الاجتماعية.

- إنّ بناء تاريخ أي تخصّص علمي يقوم على ثلاث عناصر أساسية، ويكون التاريخ بناءا على أحد هذه العناصر أو الثلاثة مجتمعة وهي: تاريخ الأفكار، أو تاريخ الفكر، أو تاريخ النظريات العلمية. تحيل الأولى إلى مجموعة من الإنتاجات الفكرية التي يبنيها فاعلون بصفة فرديةأو جماعية يتم بثها من خلال قنوات مختلفة ومتنوعة.

أمّا الثانية، فهي عملية رصد النقاشات التي تكون في فترة زمنية ما، بين مفكرين حول قضية ما، ويتم هذا النقاش عن طريق كتابات ومقالات وكتب، ولا يشارك في هذا النقاش إلاّ من كان يملك الأهلية لذلك. في حين يهتم العنصر الثالث بالنظريات العلمية أو المعرفة التي تحظى بالإعتراف من طرف المؤسسات الأكاديمية التي تملك الشرعية.

وإذا حاولنا ولو بصفة عرضية التأريخ لتخصص الإعلام والاتصال في الجزائر، نجد أنّه يفتقد إلى الشرعيات الثلاثة. فمن زاوية الأفكار لا نكاد نرصد فكرة مفسّرة لوضعية اتصالية ما، أمّا من حيث الفكر يصعب التقاط لقطة من نقاش ولو عن بعد لمفكرين (إن وجدوا) في الفضاء العام داخل المجتمع أو في الفضاء الجامعي. أمّا ما تعلّق بالنظريات، فإنّ استهلاك النظريات العامة في علوم الإعلام والاتصال يتم غالبا في حدود العموميات، وغالبا ما يتم رصد التطور الكرونولوجي الذي بدوره يتوقف عند تاريخ ظهور النظرية والنتائج المتوصل إليها، دون الإهتمام بالسيرورات المفسرة للظواهر المعالجة. قد يحتج عليّ قائل في هذا العنصر الأخير بسبب إغفالي لمساهمات

البعض على غرار عبد الرحمان عزي فيما يسميه "نظرية الحتمية القيمية في الإعلام" وهذا ينقلني الى النقطة الموالية.

- ما يسميه عزي عبد الرحمان نظرية الحتمية القيمية يعكس هذا التوجه لدى كثير من الباحثين نحو النظريات العامة للإعلام والاتصال التي تضرب عرض الحائط الواقع الامبريقي المتغيّر، وبدلا من ذلك تقوم بما يمكن تسميته اقتحام نظري يخفي محاولة بناء اجتماعي للواقع. وعليه فإنّه من المشروع طرح بعض الاستفهامات من قبيل، كيف يمكن لهذه النظرية أن تجمع بين كل مجالات الإعلام والاتصال وإشكالياتها المتناثرة انطلاقا من زاوية واحدة وموحّدة؟ لماذا لا تخضع مفاهيمها للطريقة العلمية الاستنباطية التي تستوجب الإختبار الأمبريقي؟
وما لم تخضع النظرية إلى محك الواقع المتغير يصعب اعتمادها علميا لتفسير الظواهر المرتبطة بالإعلام والاتصال.

أصبح الإعتماد علىتخصصات متعدّدة يكاد لا يكون اختيارا بالنسبة للباحثين في علوم الإعلام والاتصال للأسباب التي عدّدناها في هذا النص، التاريخية منها – أي تاريخ هذه العلوم -، والنظرية – أي علاقة هذه العلوم بالعلوم الاجتماعية – وكذا المنهجية – أي تعددية المناهج والمقتربات -، بالإضافة إلى طبيعة العلوم – أي وجودها في مفترق العلوم الاجتماعية -. إلا أنّهذا لا ينفي شرعية علوم الإعلام والاتصال،كعلوم قائمة بذاتها، مستقلة عن العلوم الأخرى بموضوعها العلمي الذي هو الوسيلة –وسيلة الإعلاموالاتصال -، على الرغم من توسّع دائرة الإنشغالات، والإهتمامات، وحتى الموضوعات.

جاء نص المقال كله محاولة لتفسير هذه العلاقة، والهدف منه هو فتح النقاش حول ملائمة وجود هذه العلوم في الجامعة ليس في المطلق بطبيعة

الحال، وإنما التساؤل عما قدمته من تفسيرات للواقع الاعلامي في المجتمع. إذ بعد مرور ما يقارب الخمسون سنة من بداية تدريس علوم الإعلام والاتصال في جامعة الجزائر، نعجز على ايجاد ما يشبه التراكم المعرفي حول أي موضوع من موضوعات الإعلام والاتصال، رغم العدد الهائل من الدراسات والبحوث، وانتقال الإهتمام من محتوى الصحافة إلى محتوى التلفزيون والإذاعة ثم دراسات الجمهور، وبعدها المؤسسة، بالإضافة إلى التكنولوجيات الحديثة للاتصال. إلاّأنّنا نبقى عاجزين على الرغم من ذلك،إلى يومنا هذا، على توصيف هذه الظواهر من الناحية العلمية، والقول مثلا ما هي طبيعة محتويات الصحف التي مرّ على إنشاء بعضها عشرين (20) سنة، وما هي اتجاهاتها التحريرية (بعيدا عن المواقف الايديولوجية من هذه الصحف)، أو الحديث عن ملامح جمهور التلفزيون الجزائري مثلا، ولو كانت الملامح الكبرى، أو طبيعة علاقة بعض الفئات من الجمهور الجزائري مع ما يشاهدون من برامج في القنوات الفضائية (بعيدا عن إطلاق الأحكام القيمية والأخلاقية عن تأثير ما يكون متخيّلا أكثر ممّا هو حقيقي)، في حين، نستطيع بكل أريحية، أن نحدّد صفات الجمهور الأمريكي والرأي العام الفرنسي، واتجاهات الصحافة البريطانية...، ونحن متأكدين من صحة افتراضاتنا، لأنها تستند إلى تراكم معرفي نظري يوفر الأرضية العلمية لتفسير كل هذه الظواهر.

يبقى أنّ كل هذه الفترة الطويلة من البحث،من دون استراتيجية بحثية تسمح لنابتحديد التوجهات النظرية،والخيارات المنهجية، والأولويات البحثية، على أساسها نتمكن من ربط البحوث ببعضها البعض للتوصل إلى تفسيرات علمية للظواهر الإعلامية والاتصالية التي تحيط بنا.

المراجع:

- Alain Laramé et Bernard Vallée. (1991). *La recherche en communication: Eléments de méthodologie.* Quebec: Presse de l'université du Quebec / Téléuniversité.
- Alex Micchielli. (2000). *La nouvelle communication: épistémologie des sciences de l'information-communication.* Paris: Armand Colin.
- Bernard Miège. (2000). Les apports à la recherche des sciences de l'information et de la communication. *Réseaux، 18*(100).
- Bougnoux Daniel. (1999). *Introduction aux sciences de l'information et de la communication.* Alger: Casbah Editions.

- Hubert Fondin. (2001). La Science de l'information: Posture épistémologique et spécificité disciplinaire. *Documentaliste-Sciences de l'information، 38*(2).

- Lucien Sfez. (Printemps, 1994). Peut on parler de sciences à propos de l'information et de la communication: Rapport au comité national d'évaluation des universités. *Quademi*(23).

- Michel Mathien. (4ém trimestre, 1995). L'études des médias: un champ ouvert à la transdisciplinarité. *Communication et langage*(106).

- Stephane Olivesi. (2006). *Sciences de l'information et de la communication Objet,savoirs,discpline.* Grenoble: Presse universitaire de Grenoble.